الفصل الرابع عشر

النمو التلقائى السريع

(أو الردة ضد الردة)

كنت فى زيارة لهانوى فى خريف عام 1995. وفى كل صباح كنت أذهب فيه للتريض كنت أسير حول المعابد الموجودة بالقرب من بحيرة هوان كييم، فى قلب هانوى، وفى كل صباح كنت أتوقف لزيارة امرأة ڤيتنامية دقيقة الحجم تقبع فى مذلة على الرصيف ومعها ميزان للحمّام. كانت تعرض أن تزن الناس مقابل مبلغ ضئيل. وفى كل مرة كنت أدفع لها دولاراً وأزن نفسى. لم يكن ذلك لأننى كنت أرغب فى معرفة وزنى. فقد كنت أعرفه. (وأتذكر أن ميزانها بصفة خاصة لم يكن دقيقاً). كلا، بل كان تعاملى التجارى مع هذه السيدة مساهمة منى فى عولمة ڤيتنام. كان شعارها الذى لم تفصح عنه هو بالنسبة لى: «أيا كان ما تملكه، كبيراً كان أم صغيراً ـ عليك أن تبيعه، أو تقايض به، أو تستفيد منه، أو تؤجره، أى شىء يمكن أن يتحقق لك فيه ربح، وترفع به من مستوى معيشتك وأن تكون طرفاً فى المباراة».

تجسد هذه السيدة وميزانها حقيقة أساسية عن العولمة تضيع غالباً فى حديث صفوة المديرين الماليين، وصناديق الحماية، وشذرات المايكروبروسسور عالية السرعة. تلك الحقيقة هى أن العولمة تظهر من أسفل، من مستوى الشارع، من داخل أرواح

الناس ومن أعمق ما يتوقون إليه. نعم، العولمة هى نتاج لديموقراطيات التمويل، والتكنولوجيا والمعلومات، غير أن ما يدفع هذه الديموقراطيات الثلاث هو الرغبة الإنسانية الأساسية فى حياة أفضل ـ حياة يتمتع فيها المرء بمزيد من الاختيارات إزاء ماذا يأكل، وماذا يلبس، وأين يعيش، وأين يسافر، وكيف يعمل، وماذا يقرأ، وماذا يكتب، وماذا يتعلم. إن العملية كلها تبدأ من سيدة فى هانوى، قابعة فى ذلة على الرصيف، تقدم لك ميزان الحمام كتذكرتها إلى دخول العالم السريع.

لقد أصبح وسط هانوى اليوم، كما لو أن كل بوصة من أرصفة شوارعها يقف عليها شخص ما يبيع بسعر رخيص فائض سلع المتاجر كالحصر أو الملابس المستعملة أو المتبقى فوق الأرفف فى واجهة أحد المحال. وكل بوصة من الطريق يحتلها أناس يقايضون صنادلهم مقابل دراجة، أو دراجتهم مقابل دراجة سكوتر آلية، أو الدراجة السكوتر مقابل هوندا سيفيك، أو سيارتهم الهوندا سيفيك مقابل سيارة تويوتا كامرى، نعم، بل حتى سيارتهم التويوتا الكامرى مقابل السيارة ليكساس أحياناً. ولما كنا نميل إلى الاعتقاد بأن العولمة شىء يربط الدول بأشياء من خارجها، أو شىء مفروض من أعلى ومن بعيد، فإننا فى المقابل نميل إلى أن ننسى إلى أى مدى هى فى حقيقتها أيضاً حركة ذات جذور متأصلة تخرج من داخل كل منا.

وهذا هو السبب فى أنه يجب علينا دائماً أن لا ننسى أنه إلى جانب الردة ضد القسوة والضغوط والتحديات الكامنة فى العولمة، يوجد أيضاً نمو تلقائى سريع بين الناس الذين يطالبون بمزايا العولمة. وقد أطلق العنان لهذا النمو التلقائى السريع ملايين العمال الذين طرحتهم العولمة أرضاً، ومع ذلك يواصلون النهوض، وينفضون عنهم التراب، ويدقون باب العولمة مرة أخرى، مطالبين بالالتحاق بالنظام. فإذا كان للسلاحف نصف فرصة، فإنها لا تريد أن تظل سلاحف، والمتخلفون عن الركب لا

يريدون أن يظلوا متخلفين، وقليلو المعرفة يريدون معرفة المزيد. إنهم يريدون أن يصبحوا أسوداً أو غزلاناً. يريدون أن يحصلوا على قطعة من النظام، لا أن يدمروه.

تصادف أن كنت فى ريو دى جانيرو عندما خصخصت الحكومة البرازيلية شركة التليفونات الحكومية، تليبراس. وخرج الناس إلى الشوارع فى مظاهرة احتجاج ضخمة ضد الخصخصة. غير أن أكثر ما أدهشنى هو أن صحيفة *أوجلوبو* *Oglobo* البرازيلية نشرت فى اليوم التالى حديثاً صحفياً مع أحد المتظاهرين وسألته عن سبب اشتراكه فى المظاهرة. فأجاب بأنه شارك فيها لأنه «اعتقدت أننى قد أحصل على وظيفة». المسكين لم يكن ضد العولمة، بل كان فقط يريد المشاركة فيها.

سوف يتحمل الناس المزيد من الضغوط المرتبطة بالعولمة أكثر مما يظن المرء ـ من ناحية لأن عمال التعدين الروس والفلاحين المكسيكيين والعمال الإندونيسيين يدركون بقدر ما أنه ليس أمامهم اختيار سوى أن ينهضوا ويسارعوا نحو العالم السريع، ومن الناحية الأخرى أنهم لا يريدون أن يكون الأمر على نحو آخر. ومن الواضح أنه إذا تعذر تماماً هزيمة قُوى السوق ـ إذا شعر الناس أن النظام أصبح مجنوناً إلى حد قطع الرابطة بين بذل الجهد الشاق والارتفاع بمستوى المعيشة، ومن ثم لم ينجح أى قدر من الإصلاحات المؤلمة أو شد الأحزمة على البطون فى أن تجعل لهم نصيباً فى هذا النظام ـ عندئذ يكون هذا النظام فى خطر. ولكننا لم نصل إلى هذا الحد بعد.

من القصص المفضلة لدىّ عن روسيا فى عام 1998 قصة حكاها اقتصادى روسى لأحد أصدقائى عن سائق الدبابة الروسى فى بلدة تقع وراء جبال الأورال الذى قاد دبابته إلى مقر إدارة البلدة مطالباً بكل رواتبه المتأخرة. وعندما أحاط سكان البلدة بالدبابة فى ذعر وسألوا السائق إن كان ينوى نسف المقر، أجاب قائلاً، كلا، كلا، كلا، ـ لقد كان السبب الوحيد فى أنه جاء بدبابته هو أنه لم يكن لديه أى وسيلة

أخرى للوصول إلى هناك وأنه لا يقدر على دفع أجرة التاكسى. إن كل ما يريده هو الحصول على راتبه.

حقاً، فعلى الرغم من كل الاضطرابات والاهتزازات التى تأتى بها الرأسمالية العالمية إلى مجتمع ما، فقد أحدث انتشار الرأسمالية ارتفاعاً فى مستوى المعيشة أعلى لكثيرين من الناس وأسرع مما حدث على مر التاريخ. كذلك أدى إلى وصول عدد أكبر من الفقراء إلى الطبقات الوسطى أسرع من أى وقت فى تاريخ البشرية. وهكذا، فعلى الرغم من أن الفجوة بين الأغنياء والفقراء آخذة فى الاتساع ـ حيث أن الفائزين فى نظام العولمة يحققون انطلاقة حقيقية، وينأون بأنفسهم عن كل الآخرين ـ فإن الأرض التى يقف عليها الفقراء آخذة فى ارتفاع مطرد فى مناطق كثيرة من العالم. وبعبارة أخرى، لئن كان الفقر النسبى يزداد فى كثير من الدول فإن الفقر المطلق ينخفض حقيقة فى كثير من الدول. يقول تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة لعام 1997، انخفض الفقراء فى الخمسين عاماً الماضية أكثر مما حدث طوال الخمسمائة عام السابقة. وقد تقدمت الدول النامية فى الثلاثين عاماً الماضية بسرعة تماثل ما حققته الثورة الصناعية طوال القرن الماضى. ومنذ عام 1960 انخفضت معدلات وفيات الأطفال وسوء التغذية والأمية إلى حد كبير، فى حين يزداد معدل الحصول على المياه النقية. ولقد نجحت الدول الأكثر انفتاحاً للعولمة مثل تايوان وسنغافورة وإسرائيل وشيلى والسويد فى فترة قصيرة نسبياً فى الوصول إلى مستوى للمعيشة يمكن مقارنته بمستويات المعيشة فى أمريكا واليابان، فى حين تضخمت الطبقة الوسطى فى دول مثل تايلاند والبرازيل والهند وكوريا، بفعل العولمة إلى حد ما.

وهذا هو السبب فى أنه على الرغم من أن الردة ضد العولمة ما زالت نشطة وقوية فإن حدة هذه الردة تخف باستمرار بفعل النمو التلقائى السريع لمزيد من العولمة ـ فالمزيد من الناس يتوقون إلى الانضمام إلى النظام. وأنت لست بحاجة إلى أن تكون

أستاذاً فى العلوم السياسية حتى تدرك ذلك. كل ما عليك هو أن تسير فى شوارع كل الدول النامية تقريباً.

سوف تقابلك شانوكفات فيتاكوانوكون؛ تلك المرأة الصينية التايلاندية البالغة من العمر أربعين عاماً التى تبيع السجائر وزلابية باو الصينية فى ذلك الكشك الصغير الذى أقامته فى طريق وايرليس فى وسط مدينة بانكوك. كنت أنزل بفندق بالقرب من ذلك المكان فى ديسمبر عام 1997، فى الأسبوع الذى أغلقت فيه الحكومة معظم بيوت المال فى البلاد، وطلبت من مترجم صحيفة ***نيويورك تايمز*** أن يصحبنى فى جولة أتعرف فيها على بعض ردود الأفعال من تجار الشوارع. كانت شانوكفات هى أول من تحدثت إليهم. بادرتها بالسؤال: «كيف الأحوال فى العمل؟»

أجابت فى تجهم: «منخفضة بنسبة 40 إلى 50 فى المائة».

سألتها إن كانت قد سمعت عن جورج سوروس، الملياردير مدير صندوق الحماية الذى اتهم حينئذ بالمضاربة بالعملات الآسيوية والتسبب فى بدء الانهيار.

قالت وهى تهز رأسها: «كلا». إنها لم تسمع قط عن سوروس هذا.

قلت لها: «دعينى أسألك سؤالاً. هل تعرفين ما هى البورصة؟»

قالت بدون تردد، «نعم، عندى بعض الأسهم فى بنك بانكوك وبنك آسيا».

سألتها، «كيف بحق السماء جاءتك فكرة شراء أسهم بنكية؟»

أجابت: «كل أقاربى يشترونها، ولذلك فقد اشتريتها أنا أيضاً. لقد ألقيت بهم فى البنك. لم يعد لهم قيمة كبيرة الآن».

عند هذا الحد من الحديث نظرت إلى أسفل، ولاحظت أنها لا ترتدى أى حذاء. ربما كان لديها حذاء فى مكان ما، ولكنه لم يكن فى قدميها. ولم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير على النحو التالى: «إنها لا ترتدى حذاء، وتعليمها لا يزيد على

السنة الخامسة الابتدائية، ولكنها تمتلك أسهماً مصرفية فى بورصة تايلاند». ثم دارت فى ذهنى بعد ذلك بعض التساؤلات. ما هى اهتماماتها؟ هل ستقود مظاهرة لإشعال النار فى مكتب صندوق النقد الدولى الذى فرض كل هذه الشروط على تايلاند من أجل إصلاح اقتصادها؟ أم، لأنها أصبحت الآن بطريقة ما جزءاً من النظام، قد تكون على استعداد للعمل بجد أكثر، وادخار نقود أكثر، وتقديم تضحيات أكثر، حتى لصندوق النقد الدولى، إذا كان ذلك سيؤدى إلى انعاش الاقتصاد التايلاندى؟ شىء ما يقول لى أنها ستختار الطريق الأخير. إنه النمو التلقائى السريع فى أجْلى معانيه.

سوف تقابل أيضاً تيرا فوتراكول الذى يرأس واحداً من أكبر الصناديق المشتركة فى تايلاند. ذهبت لإجراء لقاء صحفى معه فى إحدى الأمسيات فى بانكوك لمعرفة ما إذا كانت ستحدث ردة فى تايلاند ضد المصرفيين الغربيين والأمريكيين الذين قد يحاولون التحرك لشراء البنوك والشركات التايلاندية الآن بعد أن أصبحت العملة رخيصة إلى هذا الحد وبعد الانهيار التام لكثير من الشركات، أمعن تيرا التفكير لحظة ثم أجابنى بالقصة التالية: قبل بضعة أسابيع سرقت محفظة أحد أصدقائه. كان فى تلك المحفظة بطاقات ائتمانية من أربعة بنوك: أمريكان إكسبريس وثلاثة بنوك تايلاندية. اتصل على الفور ببنك أمريكان إكسبريس والبنوك التايلاندية الثلاثة الأخرى وأبلغها بسرقة بطاقاته الائتمانية. سأله بنك أمريكان إكسبريس إذا كان يريد أن ترسل له بطاقات جديدة بواسطة الدراجة البخارية سكوتر فى اليوم نفسه. أما البنوك الثلاثة الأخرى فلم ترد عليه حتى الآن.

قال تيرا، «وهكذا، فأسأل نفسك أنت هذا السؤال: 'هل سيهتم صديقى حقاً إذا اشترى بنك سيتى بانك الأمريكى البنوك التايلاندية الثلاثة وارتفع بمستوى أدائها إلى مستوى بنك أمريكان إكسبريس؟' وهل سيشعر بالغضب كمواطن؟ ربما، ولكن

ذلك قد لا يستمر لفترة طويلة إذا بدأت هذه البنوك التايلاندية فى توظيف أناس آخرين وبدأت فجأة تُدار بكفاءة وربحية سيتى بانك وأمريكان إكسبريس. ذلك إذن هو النمو التلقائى السريع فى أجْلى صوره.

سوف تقابل أيضاً ليليان، موظفة الخدمة الاجتماعية البرازيلية التى تبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، وتعيش فى حى روسينها العشوائى الفقير، الفافيلا (*favela*) فى ريو، وتعمل فى الحكم المحلى بها. اصطحبتنى فى جولة فى مركز الرعاية النهارية فى الفافيلا وقالت لى ونحن فى طريقنا إليه إنها ادخرت على مدى بضع سنوات حتى تتمكن فى النهاية من الانتقال بعائلتها خارج هذا الحى. والآن وبعد أن انتقلوا من الفافيلا وأصبحوا فى العالم السريع ، أصبح آخر شيء تريده هو أن ينهار هذا العالم حتى لو كافحت للدخول فيه. قالت لى:«عندما كنت صغيرة كان كل جيراننا فى حى الفافيلا يشاهدون التليفزيون فى منزل واحد. والآن انتقلت إلى مكان يبعد عن عملى مسافة ساعة وعشرين دقيقة، بدلاً من عشرين دقيقة، ولكنه بعيد عن الفافيلا وبعيد عن الجريمة. لقد انتقلت إلى المكان الجديد من أجل أولادى فليس فيه تجّار مخدرات. وأنا اكسب 900 ريال فى الشهر. وأستطيع الآن شراء تليفون. الآن منزلنا مبنى بالطوب الأحمر، وليس من الخشب، ومع ذلك يتبق لى فى نهاية الشهر مبلغ من النقود. حين كان يحدث عندنا تضخم من قبل، كان يتعذر علينا الشراء بالتقسيط لأننا لا نستطيع تحمل ارتفاع معدلات الفائدة. واليوم حتى الفقراء أصبح لديهم تليفون، ولديهم قنوات الكابل التليفزيونية وعندهم كهرباء. لدىّ كل الأشياء الأساسية التى عند الأثرياء. الآن أصبح بوسعنا الشكوى من سوء الخدمات (الكهرباء أو شركة التليفون) . من قبل، لم يكن لدينا هذه الأشياء، ولذلك فلم نكن نشكو منها». ذلك إذن هو النمو التلقائى السريع فى أجْلى صوره .

سوف تقابل أيضاً فاطمة العبدلى الخبيرة الكويتية فى علوم صحة البيئة التى تمتلك أشهر مقهى للإنترنت فى مدينة الكويت «وادى القهوة» حيث تستطيع الاستمتاع بارتشاف القهوة والإبحار فى عالم الشبكة. تلقت فاطمة تعليمها فى أمريكا، وهى ترتدى الحجاب علامة على التقوى الإسلامية، ولكن يوجد تحت هذا الحجاب رأس منشغل تماما بالشبكة. كنت فى الكويت ألقى محاضرة عن العولمة، وكانت هى من بين الحضور. بعدها دعتنى لزيارة مقهاها ومقابلة بعض الطلبة هناك. كان المقهى موجوداً فى أحد مراكز التسوق الحديثة. قلت لها وأنا أجلس فى أحد أركان المقهى : «انظرى، إننى أشعر بنوع من الحيرة. وأريدك أن توضحى لى شيئاً. أنت ترتدين غطاء الرأس الإسلامى، فمن الواضح أنك امرأة متدينة، ولكنك تلقيت تعليمك فى جامعة أمريكية وتأتين بالإنترنت إلى الكويت. وأنا أرى هناك نوعاً من التناقض فى كل ذلك» .

كان مضمون إجابتها هو أن العالم العربى الإسلامى تعرض فى الماضى للغزو مرات عديدة من الأجانب، بما يأتون به غالباً من تأثيرات وتكنولوجيات أجنبية. وقالت، حسناً، إنهم يتعرضون مرة أخرى للغزو. ولكنها فى هذه المرة سوف تمتلك هى هذا الغزو، ولن تسمح للغزو أن يمتلكها. إنها سوف تضع نوعاً من الحجاب حول الإنترنت وتتأكد من أن الشباب الذين يترددون على مقهاها يستخدمونها استخداماً سليماً. أعجبنى ذلك الجهد الذى تبذله. لا ترتد ضده ـ بل امتلكه أنت أيضاً.

قالت لى، وكان ذلك فى عام 1997 ،«إن فكرة إنشاء مقهى للإنترنت جاءتنى منذ ثلاث سنوات. كنت أعرف أنها آتية لا محالة وأننى إذا لم أفتتح واحدة لهذا الغرض، فإن آخر سيفعل. وأدركت أنه يجب أن يكون لدينا نوع من التحكم فيها، إذن فلنعلّم الناس الجانب الطيب فيها ونجعله متسقاً مع ثقافتنا، بدلاً من الانتظار إلى أن تغزونا هى. لقد تبنيتها، ثم عدلتها وفق احتياجاتنا، ونحن نقدم فى موقعنا عليها ببطء بعض قضايا حقوق المرأة [فى الإسلام]» .

ودعت العبدلى بعض طلبة جامعة الكويت للانضمام إلينا. أشار أحدهم إشارة عابرة إلى أنهم أجروا مؤخراً انتخابات طلابية فى الجامعة، وفيها فاز مرشحو الأحزاب المستقلة والليبرالية والعلمانية فوزاً ساحقاً على مرشحى الأصوليين الإسلاميين. وفى العالم العربى تحظى انتخابات الطلبة بأهمية كبيرة، لأنها تميل إلى أن تكون أكثر حرية ومن ثم تكون غالباً الأصدق تعبيراً عن المواقف الجماهيرية، بين الشباب على الأقل. سألت عبد العزيز الساحلى طالب الاتصالات البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً عن السبب فى هذه الهزيمة القاسية للإسلاميين. قال: «لم يعد الإسلاميون مؤثرين. والأحزاب العلمانية تقدم مساعدات أكثر للطلبة فى الأشياء الصغيرة التى يهتم بها الطلبة ـ مثل التصوير الإلكترونى بماكينات زيروكس، وحل مشكلات البريد الإلكترونى، وتوفير الكتب الدراسية، وأماكن وقوف السيارات. لقد قل الآن تمسك المجتمع بالأيديولوچيات. فنحن بحاجة إلى البحث عن وظيفة. ذلك إذن هو النمو التلقائى السريع فى أجْلى صوره.

سوف تقابل أيضاً اثنين من أصدقائى الأستراليين، آن وجيرارد هيندرسون المتخصصين فى العلوم الاجتماعية. لقد مر الزوجان علىّ لرؤيتى ذات يوم فى واشنطن وتحدثا إلىّ عن ابنتهما التى تدرس فى الجامعة فى أستراليا. فقال جيرارد:.«ابنتنا جوانا، تبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً. وفى ذات يوم تلقت هى وزميلتها التى تشاركها فى الشقة التى تقيمان بها رسالة من شركة التليفون الأسترالية، تليسترا، تعلن فيها أن ثلث الشركة بسبيله إلى الخصخصة وأنه يحق لكل منزل به تليفون تابع لشركة تليسترا شراء مجموعة من أسهمها. اتصلت بنا وسألتنا إن كانت تستطيع ذلك، فقلنا نعم. وهكذا وافقت على العرض. لم يكن معها سوى مبلغ ضئيل من المال ـ وكان سعر السهم ثلاثة دولارات أسترالية، وهكذا اشترت مائة سهم فيها. إنها لم تحصل بعد على أى

مرتب. فقد تعمل أمينة مكتبة أو مدرسة، أو ممن يحصلون على دخل جيد عن طريق العمل الشاق، ولكنها كانت الوحيدة من أفراد العائلة التى قبلت عرض شركة تليسترا. وقد اشترى العاملون فى هذه الشركة 90 فى المائة من الأسهم المطروحة، وأصبحوا منذ ذلك الحين أقل تشدداً فى مطالبهم من الشركة. لقد أدرك الناس مثل هذه الأشياء. وكان المحافظون قد استغلوا فى انتخابات عام 1996 الأفكار المناهضة للعولمة فى هزيمة حكومة دول كيتينج العمالية، ثم اعتنقوا ببساطة هذه الأفكار. لا يوجد بديل آخر، إلا إذا كنت ترغب فى العودة إلى الوراء. قبل عشر سنوات كان من الممكن أن تسير ابنتى فى التيار المضاد للعولمة، ولكنها، ببضعة أسهم فى شركة تليسترا، وهو كل ما كانت تمتلكه، أصبحت فجأة مهتمة بما يحدث فى وول ستريت؛ لأن ذلك أصبح يؤثر فيها الآن. ذلك إذن هو النمو التلقائى السريع فى أجلى صوره.

ولا يندفع هذا النمو التلقائى السريع بالقوة الدافعة لأن الكثيرين من الناس يرغبون فى أن يلحقوا بالنظام فحسب، ولكنه يزدهر أيضاً لأن النظام نفسه يزيد من قدرة أولئك الذين تعرضوا لقسوته على أن يحكوا للناس عن آلامهم أو على تنظيم أنفسهم ليفعلوا شيئاً إزاءه. إذ بفضل الإنترنت، على سبيل المثال، لم يعد الأمر يقتصر على بضعة شركات إعلامية كبرى مندمجة تستطيع مخاطبة الكثيرين من الناس. بل أصبح الكثيرون من الناس يستطيعون مخاطبة الكثيرين من الناس.

لقد عرفت ذلك من شاندرا مظفّر، رئيس منظمة حقوق الإنسان الماليزية التى يطلق عليها اسم الحركة الدولية من أجل عالم منصف .ذهبت لمقابلة ذلك الرجل الماليزى المسلم المهذب فى مكتبه البسيط بإحدى ضواحى كوالالمبور. ذهبت لرؤيته لهدف واضح هو الاستماع إليه وهو يلعن العولمة نيابة عن أولئك الذين تركتهم العولمة قتلى على الطريق أو الذين تخلفوا عن ركبها، وتعتبر منظمته أقوى المدافعين عنهم. ولكننى تلقيت منه رسالة أكثر رقة وأكثر إثارة للاهتمام.

قال مظفر:« فى اعتقادى أن العولمة ليست مجرد عودة إلى عصر الاستعمار. والذين يعارضون ذلك لم يفهموها على النحو السليم. فهى أكثر تعقيداً من ذلك. انظر حولك. فقد أصبح لديك نتيجة للعولمة، عناصر ثقافية من الشعوب التى خضعت للسيطرة تتسلل الآن إلى عالم الشمال. لم يعد الطعام المفضل من الأغذية البحرية للبريطانيين اليوم مجرد أسماك ورقائق البطاطس، وإنما أيضاً الكارى. إنه حتى لم يعد ذلك الطعام الغريب عليهم. ولكننى لا أتحدث فقط عن الكارى. فهناك، حتى على مستوى الأفكار قدر معين من الاهتمام بالأديان المختلفة الآن. وهكذا فإنه لئن كانت هناك تلك القوة المسيطرة (الأمركة) فإن لديك تدفقاً ثانوياً من الاتجاه الآخر ... فهناك الآن فرص متاحة للآخرين فى عرض قضيتهم عبر الإنترنت. فإيران مثلاً شديدة الاتصال بالإنترنت. وهم يرون فيها أداة يمكن لهم استخدامها فى نقل وجهة نظرهم عبر الحدود. ويعتبر فوز الفيلم الإيرانى، ***مذاق الكرز*** بالجائزة الأولى فى مهرجان كان للسينما جزءاً من ذلك التدفق المضاد. وفى ماليزيا، استطاع مهاتير أن يحظى بتغطية إعلامية إلى حد ما فى أنحاء العالم على شبكة سى إن إن الإخبارية التليفزيونية. ولقد شنت الحملة من أجل حظر الألغام عن طريق الإنترنت. هذا هو ما تفعله العولمة للجماعات الهامشية. والقول بأنها طريق له اتجاه واحد خطأ، وينبغى علينا أن ندرك أن الأمر أصبح أكثر تعقيداً. الناس يعملون على مستويات مختلفة. فعند أحد المستويات، قد يغضبون لما تتعرض له مجتمعاتهم من ظلم بسبب الأمركة، ثم يذهبون إلى ماكدونالدز ثم يناقشون هذا الموضوع مع أولادهم الذين يدرسون فى الولايات المتحدة.

ذلك إذن النمو التلقائى السريع يواجه الردة.

إن ذلك يصدق أيضاً حتى على أكثر المجتمعات تقدماً. نشرت مجلة ***فوربس*** ـ التى يصعب القول بأنها تدافع عن المحرومين من المعرفة ـ موضوعاً شديد الذكاء فى يوليه عام 1998، بعد تقرير تايم وورنر المشئوم الذى أذاعته سى إن إن يوم 7 يونيه عام

1998 عن استخدام مشاة البحرية الأمريكية لغاز الأعصاب عن عمد ضد المرتدين فى لاوس عام 1970 . وما أن أذيع هذا التقرير على الهواء حتى وصف المحاربون القدماء فى الجيش الأمريكى ما يسمى بكشف أسرار العملية تيلويند بأنه استند إلى تقارير مزيفة ومصادر مشكوك فيها. ولكن قناة سى إن إن العالمية العملاقة لم تتراجع عما أذاعته برغم الشكاوى العديدة (القنوات الإخبارية العالمية العملاقة لا تعتذر لأحد، ولا سيما لبعض العسكريين المتقاعدين) .

أشارت مجلة ***فوربس*** إلى أن «تايم وورنر ربما كان يتوقع أن يهدأ هذا الغضب المترتب على تقريره، ولكن المحاربون القدماء الذين جن جنونهم عبأوا أنفسهم على الإنترنت ـ وهى الوسيلة الوحيدة المتوافرة بسهولة لهم. ولولا الإنترنت لكان البحث عن الحقائق قد استغرق شهوراً ـ وعندئذ قد لا يهتم الكثيرون بالأمر. لقد صرح جنرال سلاح الطيران (المتقاعد) والمستشار العسكرى لشبكة سى إن إن، بيرى سميث بقوله، 'لقد أتاحت لى الإنترنت أن أفعل فى ثلاثة أيام ما فعله إبريل أوليفر (المنتج فى شبكة سى إن إن) فى ثمانية أشهر'. غير إنه ترك العمل فى الشبكة احتجاجاً على البرنامج، ثم ساعد فى دحض ما جاء به. وقال سميث إنه فى ليلة إذاعة البرنامج، وضع على عجل قائمة بأسئلة حول ما جرى حقيقة فى لاوس. فقد أرسل هذه الأسئلة بمجرد الضغط على زر إلى أكثر من 300 من أفضل مصادره ـ ويصفها سميث 'بريدى الإلكترونى الجدير بالثقة'. وهكذا، بدأ البريد الإلكترونى يصل إلىّ طائراً من كل اتجاه. لقد كان تصنيف عملية تيلوند أنها بالغة السرية، وهكذا فإنه كان على المحاربين القدماء فى ڤيتنام الانتظار إلى أن تقرر لهم البيروقراطية فى البنتاجون السماح أو عدم السماح بالاطلاع على المعلومات التى يرغبون فيها من أجل تكذيب ما أذاعته شبكة سى إن إن، وتكون حينئذ الضجة قد هدأت. ولكنهم باستخدام شبكة البريد الإلكترونى، التى لا تكلفهم شيئاً تقريباً، استطاعوا بمجهودهم وحدهم تجميع كل

الشهادات التى يحتاجونها من الجنود الذين كانوا فى مسرح الأحداث فى ذلك الوقت، ثم إبرازها فى وجه سى إن إن فى غضون أيام.

وفى النهاية، أجبر المحاربون القدماء ـ الذين لا تكاد تكفيهم المعاشات وهم مسلحين بالبريد الإلكترونى ـ ريك كابلان رئيس شبكة سى إن إن عالى المكانة أن يظهر على شاشة شبكته، وهو يبدو مثل الغزال المذعور أمام الأضواء، وينفى صحة القصة التى أذاعها وأن يعتذر مرات ومرات لإنقاذ وظيفته ومحاولة استعادة بعض المصداقية لشبكته التليفزيونية.

وتذكرنا كل هذه القصص على نحو ما بأنه إذا كانت العولمة تفرز شعوراً هائلاً بالاغتراب، نظراً لاستمرار انتقال القوة إلى المزيد والمزيد من تلك المستويات المجردة التى يصعب لمسها أو والتأثير فيها أو حتى رؤيتها، فإنها تستطيع أيضاً أن تفعل العكس. إنها تستطيع أن تهبط بمزيد من القوة والموارد إلى المستوى المحلى وإلى الأفراد بصورة لم تحدث من قبل.

تساعدنا أيضاً كل هذه القصص فى تفسير السبب فى أن الردة ضد العولمة لم تكتسب حتى الآن ـ وأنا أشفق من التعبير ''حتى الآن'' ـ الحجم الكافى حتى تتمكن حقيقة من عرقلة هذا النظام الجديد. انظر إلى جنوب شرقى آسيا. أحياناً تكون الأخبار فى تلك الضوضاء ـ فى صراخ الناس فى الشوارع وفى نقوشهم أو رسومهم البسيطة على الجدران. ولكن أحياناً تكون الأخبار حقاً فى ذلك الصمت ـ فيما لم يقله أحد. إن أعظم حكمة تستطيع اكتسابها وأنت مراسل صحفى هو أن تفهم الفرق بين الاثنين، وأن تعرف متى يكون فى الصمت أبلغ الكلام. إننى أشعر بأن أهم قصة إخبارية خرجت من آسيا فى عام 1998 هى ذلك الصمت النسبى الذى تقبلت به الطبقات الدنيا والمتوسطة فى تايلاند وكوريا وماليزيا، بل وفى إندونيسيا الحكم الذى أصدرته السوق العالمية ـ بأن بلادهم لديها مشكلات أساسية فى برمجياتها ونظام

تشغيلها ـ وأنها على استعداد لقبول العقاب وأنها تحاول الآن القيام بالتعديلات اللازمة.

كان من المستحيل التنبؤ بالفترة التى سوف يستغرقها ذلك، إلا أنه ظل يدحض كل أولئك الذين كانوا يتنبأون بقرب زوال العولمة. إذ إنه بعد كل اضطراب يحدث فى الاقتصاد العالمى، أو بعد كل تجربة نووية هندية، يكتب بعض النقاد أن كل ذلك يثبت أن العولمة قد «انتهت»، وأن النظام ينهار، وأنه لم يعد هناك سوى بيئة تسودها المنافسة الشرسة من أجل البقاء. لقد دفنت العولمة تماماً على يد أولئك الذين لا يفهمون أبسط الأشياء عنها ، والذين لم يتحدث إليهم أمثال ليليان أو تيرا أو تشاندرا أو شانوكفات أو ابنة عائلة هندرسون أو عمال المعادن الروس ناهيك عن السيدة العجوز ضئيلة الحجم ذات الميزان فى هانوى . ذلك أنه عندما يتخلى هؤلاء جميعاً عن محاولة أن يكونوا جزءاً من العالم السريع، وعندما يعلن هؤلاء جميعاً أنهم يفضلون العودة إلى نظمهم القديمة المنغلقة التى تخضع لسيطرة الحكومات وأنهم يتخلون عن محاولة الحصول على أسلوب حياة أفضل ـ لهم أو لصغارهم ـ فحينئذ سوف أعترف بأن العولمة انتهت وأن الردة ضدها قد انتصرت.

وحتى يحدث ذلك ، دعنى أطلعك على سر صغير عرفته من حديثى مع كل هؤلاء الناس: مع كل ما نكنّه من احترام لأصحاب النظريات الثوريين إلا أن «التعساء فى الأرض» يريدون الذهاب إلى عالم ديزنى ـ وليس إلى المعسكرات. إنهم يريدون المملكة السحرية، وليس *البوساء*. وإذا شيدت لهم نظاماً اقتصادياً وسياسياً يمنحهم بعض الإحساس بأنهم بالعمل الشاق والتضحيات سوف يذهبون إلى عالم ديزنى وسوف يستمتعون بالمملكة السحرية، فسوف يتمسك معظمهم بالمباراة لفترة أطول كثيراً مما كنت تتوقع.